النبي محمد في ميزان الكتابات الأنجلو - أمريكية

عبد الله العلوي

إنّ الصورة التي رسمها لنا الباحث السوري عبد النبي اصطيف في مقاله صورة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- في الكتابات الأنكلو – أمريكية، لهي صورة ماسحة على مدى الإنصاف والعدل والحق، والإجحاف والتعسف والظلم في حق هذه الشخصية المقدسة عند من يدينون بديانة الإسلام، من خلال الاستعانة بالكتابات الأمريكية والكتابات المتحدثة باللغة الإنجليزية، والحق أنه استطاع أن يجسد هذه الصورة من خلال استدلاته بكتّاب أوربيين وأمريكيين كبار، تدعيما للفكرة الأساسية التي انبنى عليها المقال.

وإننا إذ نطل على الصراعات الدينية الحاصلة في العالم أجمع، نجد أنّ الصراعات على مر العصور والأزمان كانت ساكنة في قلوب الكثير من متشددي الديانات أنفسهم، وهذا الأمر لا يمكن أن نطلقه على المسلمين وحدهم، أو على المسيحين وحدهم، أو على اليهود أو غيرهم، وإنما صارت على مرّ التاريخ أحداثًا توضح لنا مدى الحقد الدفين الذي يحمله كل أصحاب كل دين على الآخر، ومن ذلك الحروب الصليبية على الدول الإسلامية، كذا الحروب التي شنها العثمانيون في لبنان على المسيحيين، مما اضطرهم إلى الهروب إلى أعالي الجبال، كما نجد الهندوس في الهند قتلوا ما لا يقل عن ١٠ آلاف من المسلمين، وكذا العكس، ولا ننسى المذابح التي أقامها الأسبان للعرب المسلمين بعد سقوط غرناطة، آخر معقل للمسلمين في شبه جزيرة إيبريا، فإذا كان المسلمون يعاملون الطرف المسيحي المنهزم على أنّه الأقل شأنًا وعليه دفع الجزية، فإنّ الأسبان قاموا باستئصال المسلمين واليهود تمامًا، وأفرغوا البلاد منهم، وهذا المنهج لا يمكن أن نتهم به الديانة نفسها بل نتهم من فهموا الديانة على الطريقة الخاطئة.

أمّا الصورة التي رسمها سلمان رشدي عن محمد رسول الله، ليست جديدة، بل هي عبارة عن تراكمات ومواقف تربّعت في عقل رشدي حول الإسلام ومعتنقيه، مما جعلته يبحث عن طريقة لكي ينتقم على هذا الحقد الدفين بطريقة إبداعيّة فكتب روايته الشهيرة "آيات شيطانية"، منها استطاع أن يصف هذه الشخصية الجوهرية في الإسلام، ولا أظن أنّ رشدي كان جاهلا بمدى أهميّة هذا الشخصية عند المسلمين، فهو لم يرسمها دون أن تكون لديه مرجعيّات سابقة، بل هو يعرف مدى قدسية هذه الشخصية لدى المسلمين، ويعلم علم اليقين ردة الفعل التي ستظهر من المسلمين، لذلك هو لم يسحب الكتاب من السوق، رغم ردود الفعل الدولية السلبية، والتهديدات التي لاقاها من قبل المسلمين أنفسهم حتى وصل الأمر بإباحة دمه من قبل الخميني، ومع كل ذلك فهو لم يسحب روايته، ويمكن أن أصنف بعض ردود الفعل أنّها طبيعية من قبل المسلمين، لأنّه مس شخصية مهمة ومؤسسة من شخصيات ديانة الإسلام، ولو حصل الشيء ذاته عند ديانة معينة في العالم الشرقي أو الغربي لكان ردة فعلهم مشابهة إن لم تكن الأقوى من ذلك.

ومما يجب تقريره وإثباته أنّ نظرة العالم الغربي والأمريكي لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ليست على نسق واحد؛ فمنهم المنصف، ومنهم الجاهل، ومنهم المغرض، ومنهم الإقصائي الحاقد؛ وكل نظر إلى هذه الشخصية وفقا للغايات التي من أجلها جعلته يرسم تلك الصورة، فهناك كتابات تجد هذه الشخصية من ناحية سياسية، ومنهم من ينظر إليها بطريقة اجتماعيّة، ومنهم من ينظر إليها بطريقة إنسانية، ومنهم من ينظر إليها بطريقة العدو وهلم جرا، وكل ذلك عائد إلى التاريخ المتكدّس، والمتلاصق بين الديانات بعضها ببعض.

لقد كتب الكثير من كتّاب المجتمع الغربي والأمريكي كتابات مسيئة للنبي محمد، وأبرز هؤلاء الكاتب الأمريكي مايكل كوك في كتابه: محمد، فقد شكك بدعوة محمد، كذلك اتهمه في أماكن كثيرة أنّه سرق من اليهودية، حتى وصل إلى أنّ شخصية محمد هي كذبة لفقها الهاجريّون – نسبة لهاجر زوجة إبراهيم عليه السلام-، كما وصفوه بأنّه سارق من التوراة، ومنهم من وصفه أنّه كان يسجد لصنم مصنوع من ذهب كانت تخبئه الشياطين، وقد وصفه دانتي بالإلحاد في ملحمته الكوميديا الإلهية، كما وصفوه في كتابتهم بأنّه ساحر، وأنّه فاجر، وسارق، كما نجد أنّ دانتي وجد في رحلته إلى العالم الآخر أنّ محمدًا في الجحيم، كذا نجد المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون يقول: «إنّ القرآن اختراع محمدي نسبه محمد إلى الله»، وأمّا المستشرق الأمريكي واشنطجن أرفنج ينفي أن يكون القرآن في العهد المكي اختراعًا من عند محمد، بل كان نسبته إلى الله صادقًا، ولكن بعد هجرته إلى المدينة، والتفاف أصحابه حوله وتبديل ضعفه إلى قوة اتجه محمد وجهة دنيوية زعامية فصاغ القرآن على هواه، بما يناسب طموحاته الشخصيّة الدنيوية، وهناك من الأقوال ما يستقذر اللسان قولها حتى تستطيع كتابتها، وكل هذه دال على مدى الحقد والبغض والكراهية، التي يحملها أصحاب هذه الديانات على النبي محمد. في المقابل نجد أنّ هناك من أنصف وأعطى هذه الشخصية حقها كاملا؛ كما فعلت الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونغ في كتابها: محمد سيرة للنبي، فقد أنصفته أيّما إنصاف، رغم بعض القراءات التاريخية الخاطئة، وربما كان سببها المراجع التي استعانت بها، وقد بررت في مقدمتها عن سبب هذا الإجحاف في حق محمد رسول الله فتقول: إنّ موقف مشركي مكة في عهد الرسول الكريم، وموقف أوربا الآن من الإسلام ناتج عن آفتين: الجهل والخوف». بالاستعانة بالمصادر العربية القديمة للسيرة النبوية استطاع الكاتب الإنجليزي مارتن لينجز أن يعطينا صورة حقيقة عن النبي محمد، رغم أنّ اعتماده الكبير على الموثوقات أفقد البحث قوته كدافع قوي لفهم صورة محمد، لأنّه صار عبارة عن نقل لكتب شرقية – إن صح القول- كما إنّ هناك الكثير من الكتّاب والمستشرقين الغربيين والأمريكيين من نظروا لهذه الشخصية على أنّها شخصية إصلاحيّة، مجتمعية، دينيّة، ولم يقتصر الإنصاف على المجال العلمي بل شمل المجال السياسي، والديني؛ فهناك سياسيون ورهبان وأقباط وقساوسة أنصفوا هذه الشخصية الإسلامية، فوصفوه بأنّه صاحب رسالة، وأنه مبعوث من الله، وأنّ رسالته رسالة دينية بحته، وأمثال ذلك كثير، من ذلك المستشرق الفرنسي تبين دينيه، والمستشرق البريطاني ألفريد جيوم.

فوق كل هذا لا نستطيع أن نقول إنّ نظرة الشرق عامة والمسلمين خاصة هي نظرة منصفة، فهناك من المسلمين من هوّل هذه الشخصية حتى تكاد تصل إلى الألوهية، وهذا منطق عارضه الدين نفسه عندما قال أبو بكر بعد وفاة محمد رسول: «من كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت»، ولكن ما تزال هناك شرذمة من المسلمين من يجدون أنّ محمدًا هو إله، وهذا تصور خاطئ ليس من الإسلام في شيء. ختام القول إنّ هذه هي كانت نظرة الكتابات الإنكليزية والأمريكية حول هذه الشخصية الجوهرية لدى المسلمين، فلا تأخذنا العاطفة الدينية إلى أن نتّهم الآخرين بأنهم لم ينصفوا محمدا، أو نقول إنّ القليل فقط من الغرب من أنصف محمدًا، بل هناك الكثير من نظر إلى شخصيّة محمد بأنّها شخصيّة متّزنة مثاليّة حقيقية وفقًا للمصادر العلمية الموثوقة، سواء المصادر الدينية أو غيرها.

abdlla1991@gmail.com